

الباب الثالث

الدلالة الزمنية للصيغ الفعلية مع النواسخ

obeikandi.com

الفصل الأول

* كان فعل، كان يفعل.

* كان فعل، ان كان فعل.

* كان يفعل والدلالة على الازمنة المختلفة.

* ان كان يفعل.

* من كان يفعل.

كان فعل : كان يفعل

أولاً : كان فعل

رأينا في الباب السابق، أن "كان فعل" في القرآن لها لون زمني خاص، إذ هي تدل على زمن أبعد في الماضي من زمن "كان المختص بالماضي" و "فعل" الدالة على الأزمنة بنسبها المختلفة. ومن تبعات دخول كان على "فعل" أو "يفعل" أنها تصرفها الى الماضي الخالص وبذلك يصبح التركيب فعلين ماضيين لفظاً، أو معنى هما "كان" و "فعل" الا أن "كان" أبعد في الماضي -كما قلنا- من "فعل".

من ذلك قوله تعالى : «وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفراً» (القمر 14/54).

وقد ذهب أبو حيان الى أن كان هنا زائدة : أي جزاء لمن كفروا ونعتقد أن هذا التأويل لا يستقيم مع المعنى المراد في هذا المقام لأن هذه النعم التي أهداها الله انما كانت جزاء لموقف معين في حادثة معينة ولو قدرنا جزاء لمن كفر لأصبح الجزاء عاما يشتمل كل الأزمنة ولقد اختلف المفسرون في معنى "كفر" اذ معنى كُفِرَ عند الزمخشري أن نوحا عليه السلام نعمة مكفورة "لأن النبي نعمة من الله" ومنهم من فهمها على أنها جزاء للكافرين على قراءة من قرأ "كفر" بصيغة المعلوم والكافرون هم قوم نوح عليه السلام ويصبح المعنى "أن ما نشأ من تفتيح أبواب السماء بالماء وتفجر عيون الأرض والتقاء المائتين من عرق قوم نوح عليه السلام كان جزاء لهم على كفرهم" (1).

ومهما اختلف المفسرون في معنى "كفر" فان "كفر" في هذا التركيب تبقى على دلالتها الزمنية وهي الماضي البعيد : "ولما كان الكفر قد حدث قبل

1 - انظر الكشاف 38/4 ، وانظر البحر 178/8 وما بعدها.

النجاة، فقد عبر عنه بصيغة الماضي البعيد : المكونة من فعلين : ماض يفعل الكينونة وهو "كان" والفعل المراد التعبير عنه في صيغة الماضي وهو "كفر" (1). ومنه قوله تعالى : «لقد كانوا عاهدوا الله من قبل» (الاحزاب 15/33). ولعل موقع هذا التركيب في السياق الذي جاءت فيه الآية يوضح طبيعة الزمن الذي تدل عليه اذ هو يتكون من : -كان- الدالة على ماض زاعد من زمن "الاستئذان" وعند دراسته الاية في السياق الذي وردت فيه، نجد أن هذا التركيب يدل على الزمن الماضي البعيد لأن الآية تتحدث عن زمنين ماضيين أحدهما أقرب وهو الزمن الذي وقع فيه الاستئذان يوم غزوة الخندق في قوله تعالى : «اذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي» (الاحزاب 13/33). وهو زمن مضي، والثاني زمن بعيد، هو الزمن الذي عاهدوا فيه يوم غزوة أحد ألا يفروا بعدما نزل فيهم ما نزل (2).

أن الزمن الذي يشير اليه التركيب "كانوا عاهدوا الله من قبل" فهو زمن أبعد من زمن الاستئذان والدليل على ذلك، وجود "من قبل" اذ التقدير من قبل ذلك، أو من قبل الاستئذان والله أعلم. وشرح أبي حيان الآية يوضح هذا المعنى الزمني : «والذين عاهدوا بنو حارثة وبنو مسلمة، وهما الطائفتان اللتان همتا بالفشل في يوم أحد، ثم تابوا وعاهدوا ألا يفروا فوقع يوم الخندق من بني حارثة ذلك الاستئذان» (3).

1 - مجلة مجمع اللغة العربية مقالة معاني الماضي والمضارع في القرآن الكريم للأستاذ/حامد

عبدالقادر ج 10.

2 - الكشاف 254/3.

3 - البحر : 219-215/7.

ومن شأن هذا الجدول الزمني أن يوضح المسار الزمني لهذا التركيب :

المستقبل	الحاضر	الماضي القريب	الماضي البعيد
		زمن الاستئذان	كانوا عاهدوا
		(يوم غزوة الخندق)	من قبل
			(يوم غزوة أحد)

ان كان فعل :

رأينا في الباب الأول هذا التركيب قد جاء في سياق شرطي مما جعله يكتسب دلالة خاصة، فلا هو دال على الماضي البعيد لاقتترانه بـ "كان"، ولا هو دال على الاستقبال بأداة الشرط، لذلك اختلف النحاة في الدلالة الزمنية لهذا التركيب فمنهم من جعله للاستقبال وأعطى الغلبة لمعنى الشرط، ومنهم من رأى أن "كان" لا يقلب ماضيها، وأن "ان" لا تقوى على قلبها (1) للاستقبال. أما الرأي الذي نراه مناسباً للمعنى الزمني في هذا التركيب فهو ما ذهب إليه الرضي، إذ هو يرى أن "كان" للشرط في الماضي (2)، وهو رأى توضحه كثير من الشواهد القرآنية في مثل قوله تعالى : «ان كنت قلتة فقد علمته» (المائدة/116).

اذ يتبين من تحليل هذا التركيب أن "كان" مع "ان" تعطي بُعداً زمنياً خاصاً لهذا التركيب إذ تضعه في زمن أبعد في الماضي من جواب الشرط، أي أن "فقد علمته" تال في الزمن لـ "ان كنت قلتة" والمعنى : "اذا حدث وقلت فقد سبق في

1 - انظر ذلك بالتفصيل في الباب الأول الفصل الأول : زمن الفعل عند النحاة.

2 - شرح الرضي على الكافية 265/2.

علمك". والسياق هنا سياق ماض قال الرازي : وهذا مبالغة في الأدب، وفي اظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال، وتفويض الأمور بالكلية الى الحق سبحانه(1)، ومنه قوله تعالى : «فان كان كبير عليك اعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض» (الانعام/35/6).

فعند تحليل هذا التركيب نجد أن "ان كان" تدل على الماضي، لا غير وأن ان الشرطية لا تدل هنا على الاستقبال بل تفيد التبيين والتوضيح والتأكيد على أن الفعل قد وقع أما جواب الشرط فانه لم يقع(2) وهو قوله تعالى : «فإن استطعت...» أي أنه لم يأت تاليا في الزمن لفعلي الشرط فقط ولا جاء دالا على الاستقبال. ومنه قوله تعالى : «ان كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت» (يونس/71/10).

فالدلالة الزمنية لهذا التركيب هي الماضي البعيد، لأن المعنى هو الاحتمال أن يكون قد وقع في أنفسهم هذا الأمر (بأن كبير عليهم مقامه) قبل مخاطبة سيدنا نوح عليه السلام اياهم، لأن معنى كبير مقامي "طول مقامي فيكم"(3). أما جواب الشرط فقبل أنه محذوف، وتقديره فافعلوا ما شئتم وقيل هو "فعلى الله توكلت".

كان يفعل

يكاد يتفق النحاة على أن هذا التركيب يدل على أن الحدث كان مستمرا في الماضي(4)، وسنرى أن هذا الحكم يطرد في كثير من النماذج القرآنية، ولكنه لا ينسحب على كثير من الحالات التي أبعد فيها السياق دلالتها عن الزمن

1 - التفسير الكبير للامام الفخر الرازي : 134/12.

2 - البحر 113/4.

3 - البحر 178/5.

4 - انظر فصل زمن الفعل عند النحاة في الباب الأول.

الماضي ليقلبها في مراحل زمنية مختلفة فمن دلالات الماضي قوله تعالى: «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (البقرة/75).

حين جاء التركيب "كان يسمعون" دالا على الماضي على الرغم من كونه يتشكل من "كان" الدالة على الماضي و "يسمعون" الدال غالبا على الحاضر والاستقبال. فقد جاء في سياق يوحي بذلك، ويشرح الزمخشري "فريقا" منهم بأنهم طائفة فيمن سلف منهم (1) أو بأنهم: "قوم من السَّمْعِينَ المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور وما أمر به ونهى، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره: ان استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وان شئتم ألا تفعلوا فلا بأس" (2)، وهو شرح يمضي بهذا التركيب الى الماضي البعيد اذ يحدث الفعل في عصر سيدنا موسى عليه السلام. ومنه قوله تعالى: «اذا جاءوكم قالو آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون، وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبس ما كانوا يصنعون» (المائدة/61،62،63).

حيث أن التراكيب "كانوا يكتمون"، "كانوا يصنعون" انما تدل على الزمن الماضي بدهاءة لأن "كان" تصرف الفعل الى الماضي ويهمننا أن نتبين المرحلة الماضية التي يشير اليها هذا التركيب. ان السياق الذي جاءت فيه هذه الآيات يفيد أن ماضي هذا التركيب غير بعيد من الحاضر نسبيا، وأن هذه الايات نزلت في "ناس من اليهود كانوا يدخلون على الرسول عليه الصلاة والسلام، ويظهرون له الايمان نفاقا، فأخبره الله عز وجل بشأنهم أنهم يخرجون من مجلسك كما دخلوا" (3).

1 - الكشاف 1/291.

2 - أسباب النزول 17 وانظر البحر 1/272.

3 - انظر الكشاف 1/226، والتفسير الكبير للرازي 1/38.

وقد رأينا كيف دل تركيب مماثل على الماضي البعيد، وهو قوله تعالى :
"وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم
يعلمون» ومنه قوله تعالى : «ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله
الرسال وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام» (المائدة 75/5). اذ نجد أن "ياكلان
الطعام" للماضي البعيد هو عهد سيدنا عيسى وأمه مريم عليهما السلام، حيث
كانا محتاجين الى الطعام أشد الحاجة (1) فدلالة هذا التركيب على الماضي
تساير السياق الذي وردت فيه الآية ومنه قوله تعالى : «وكانوا من قبل
يستفتحون على الذين كفروا» (البقرة 89/2) انما تميز بهذا التركيب هو أنه
جاء مشفوعا بزمن قبل. اذ من شأن هذه القرينة أن تخصصه بالماضي وتثبتته فيه
أما عن درجة المضي التي يشير اليها التركيب، فان السياق الذي جاءت فيه
الآية شرح المفسرين لها ولأسباب نزولها يحددها في زمن غير بعيد فقد قال ابن
عباس : كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هزمت يهود خيبر فقالت
اليهود بهذا الدعاء، وقالت : اللهم أنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا
أن تخرجه لنا في آخر الأزمان الا نصرتنا عليهم، قال فكانوا اذا التقوا، دعوا
بهذا الدعاء، فهزموا غطفان فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا
به (2) فأنزل الله تعالى : «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما
جاءهم ما عرفوا كفروا به». وهكذا نجد أن سياق الآية يضع هذا المركب الفعلي
في زمن ماض غير بعيد، إذا حسبنا الزمن بحساب الحقب التاريخية اذا أن
نزاع يهود خيبر مع غطفان انما كان قبيل البعثة النبوية ونزول القرآن.

ومن دلالات "كان يفعل" على الماضي القريب قوله تعالى : «علم الله أنكم
كنتم تختالون أنفسكم». (البقرة 187/2) اذ جاءت "كنتم تختالون" دالة على
وقوع حدث في زمن قريب من الحاضر فقد نزلت هذه الآية مباشرة بعد أن سبق

3 - المصدر نفسه 61/11.

1 - انظر أسباب النزول للنيسابوري : 18.

في علم الله أنهم يختالون أنفسهم أي أن الآية نزلت في قوم عاشوا في عصر البعثة فوقعوا في المعصية بالجماع والأكل بعد النوم (1) أي أن الزمن الذي يدل عليه التركيب هو الماضي المتصل بالحاضر والدليل على ذلك قوله تعالى : «علم الله أنكم كنتم تختالون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم» (البقرة/187).

اذ أن الغاء العاطفة في قوله "فتاب" تدل على الفور بدون تراخ، أي أن التوبة جاءت تالية مباشرة للاختبان.

والرسم التالي يوضح الموقع الزمني الدقيق للتركيب التي درسناها :

المستقبل	الحاضر	الماضي القريب	الماضي البعيد
		- كانوا يكتبون	"كان فريق منهم
		- كانوا يعلمون	يسمعون كلام الله"
		- كانوا يصنعون	
		- كانوا من قبل	
		يستفتحون	
		- كنتم تختانون	

ومن الآيات التي جاءت فيها "كان يفعل" دالا على الماضي لفظا ومعنى قوله تعالى : «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (البقرة 61/25)، «ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون» (الاعراف 137/7) :

- « تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » (ابراهيم 10/14)
- « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (البقرة 141/2).
- « وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون » (آل عمران 24/3).
- « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » (البقرة 61/2).
- « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » (المائدة 78/5).
- « ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون » (الأنعام 43/6).
- « وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (الأنعام 122/6).
- « قالوا أن جئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا » (الأعراف 70/7).
- « يا أهل الكتاب قد جاؤكم رسولنا بين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » (المائدة 15/5).
- « قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » (التوبة 65/9).
- « أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون » (يونس 51/10).
- « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون. » (الشعراء 75/26).
- « ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعوا إليه من قبل » (الزمر 8/39).
- « وانه كان يقول سفيها على الله شططا » (الجن 4/72).
- « ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم » (الاحزاب 52/33).

- « ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم » (سبأ 43/34).

- « ولئن سألتهم ليقولهن انما كنا نخوض ونلعب ». (التوبة 65/9).

ان كان يَفْعَلُ :

استقر رأي النحاة كما رأينا على أن : "كان يفعل" تدل على أن الحدث كان مستمرا في الماضي، فيما يكون عادة أو يكون حالة عامة لأن "كان" عندهم "خلقت للماضي" (1). إلا أن هذا التركيب يفيد دلالات زمنية أخرى عندما تسبقه إحدى أدوات الشرط، "فكان الناقصة لا تقتصر دلالتها على الزمن الماضي، بل تفيد أوقاتا يحكم فيها السياق" (2).

لذلك اضطررنا الى عرض نماذج كثيرة من هذه التراكيب اذ تبين لنا ونحن نحلل دلالاتها الزمنية أن لكل تركيب -تقريبا- طرفه وموقعه الزمني الخاص من ذلك أن "ان كان يفعل" قد لا تدل على زمن خاص ولكنها تدل على حدث يمكن وقوعه في أي وقت. ومن ذلك قوله تعالى : «ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر» (البقرة 228/2)، اذ أن التركيب "ان كن يؤمن" لا يختص بزمن معين، بل أنه يشمل جميع الأزمنة اذ المعنى : أن كل من اتصف بالايان في أي زمان وفي أي مكان، لا يقدم على ارتكاب ما لا يحل له (3). قال أبو حيان وعلق ذلك على هذا الشرط (أي علق تحريم الكتمان على الايمان) ابعادا وتعظيما للكتم (4)، أما جواب الشرط فهو يساير فعل الشرط في الزمن لأنه مقدر من الجملة ذاتها قال أبو حيان : هذا شرط جوابه محذوف على الأصح من المذاهب حذف لدلالة ما قبله عليه، ويقدر

1 - انظر الفصل الخاص بزمن الفعل عند النحاة.

2 - الزمن في النحو العربي للدكتور كمال بدري 86.

3 - البحر : 186/2 والكشاف 366/1.

4 - الكشاف 366/1.

هنا من لفظه، أي : أن كن يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحل لهن ذلك (1).

ومن ذلك قوله تعالى : «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» (النور2/24)، اذ نجد أن هذا التركيب يكاد يفقد دلالة الزمنية، فهو لا يقف عند زمن معين، وإنما جاء "من باب التهيج" والهباب الغضب لله ولدينه" (2) أي أن هذا التركيب يخلو من الدلالة الزمنية وينصرف الى معنى نفسي، عاطفي عند صاحب الكشاف، ولكن النظرة المتأنية الى السياق الذي جاء فيه التركيب وهو قوله تعالى : «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله 158واليوم الآخر» (النور2/24). تجعلنا نهتدي الى تيار زمني يسري في التركيب لأن الحكم بالجلد على الزاني والزانية يشمل كافة الناس في كل الأزمنة ويكون معنى (ان كنتم....) أن كل من يؤمن بالله (في سائر الأزمان) يجب ألا نأخذه بهما رأفة فزمن هذا التركيب في رأينا زمن عام لا يختص بمرحلة معينة. أما قوله تعالى : «ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعتكن واسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أحرا عظيمًا» (الاحزاب23,28,29).

فان سياق الآية يصرف التركيب الى الاستقبال فقط، اذا المراد بالزمنين (ان كنتن تردن الحياة.... وان كنتن تردن الله ورسوله) التخبير، والتخبير لا يكون الا في المستقبل فالمعنى الزمني للآية هو : "عليكن من الآن أن تخترن بين الحياة الدنيا وبين الله ورسوله والدار الآخرة" ونحن انما نستوحي هذا التوجيه الزمني مما قاله المفسرون في سبب نزول هذه الآية. يقول أبو حيان : "قال أبو القاسم الصيرفي لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ملك الدنيا

1 - الكشاف 366/1.

2 - المصدر نفسه 47/3.

ونعيم الآخرة فاختر الآخرة، وأمر بتخيير نسائه، ليظهر صدق موافقتهن "الى أن يقول" وروى أنه قال لعائشة وبدأ بها، وكانت أحبهن (أحب النساء اليه) اني ذاكر لك أمرا ولا عليك أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ثم قرأ عليها القرآن. فقالت : أفني هذا استأمر أبوي؟ فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" (1).

فالذي نستخلصه من هذه الرواية أن زمن "إن كنتن" تردن وإنما يصرف الى الاستقبال ولا علاقة له بالزمن الماضي وفي قوله تعالى : «قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» (آل عمران31/3).

نجد أن الزمن الماضي أبين في التركيب "ان كنتم تحبون الله" اذ المعنى "ان كنتم مريدين لعبادة الله على الحقيقة فاتبعوني حتى يصح ما تدعون من ارادة عبادته يرضى عنكم حتى يصح ما تدعون من ارادة عبادته يرضى عنكم ويغفر لكم" (2). و "كنتم هنا تنصرف بالحدث "تحبون" الى الماضي دون لبس أو تداخل في الأزمنة على نحو ما فسر الزمخشري في الكشاف وعلى حسب ما جاء في سبب نزول هذه الآية اذ "رغم أقوام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله فأراد أن يجعل لقولهم تصديقا من عمل" (3).

ومن الايات التي تضمنت هذا التركيب "ان كان يفعل" قوله تعالى :

- «وان كان رجل يورث كلاله أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس» (النساء12/4)

- «وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكر من الأولين لكنا عباد الله المخلصين» (الصافات167/37).

1 - البحر 226/6.

2 - الكشاف 422/1.

1 - الكشاف 422/1.

- «قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعلقون» (آل عمران 118/3).
- «فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» (النساء/59).
- (4).
- «فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون» (الأنعام/60).
- «يا أيها الملأ افترنى في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون» (يوسف/43).
- «فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون» (النحل/43).
- «واشكروا نعمة الله ان كنتم إياه تعبدون» (النحل/114).
- «قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون» (المؤمنون/23/84).
- «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» (النور/2/24).
- «قال رب المشرك والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون» (الشعراء/28).
- (26)(9).

من كان يفعل : (1)

في قوله تعالى : «من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد الى السماء» (الحج/22/15).

هذا التركيب يتشكل من "من" الشرطية الدالة على الاستقبال، و "كان" التي لا تفيد وضعاً الا على الماضي وعلينا في هذا التحليل للتركيب أن نتبين

1 - سوف نقتصر هنا على دراسة من الشرطية لتتبع الأزمنة فيها. أما "من" الموصولة في قوله تعالى : «ذلكم بوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر» (الطلاق/2/65) ونحو قوله تعالى لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» (الأحزاب 21/33) فانها تأتي غالباً للماضي.

المحصلة الزمنية لهذا التركيب، ولقد رأينا في الباب الأول أن الفراء قد ألغى "كان" في مثل هذا التركيب وجعلها زائدة في المعنى وأن الرضى جعله للشرط في المضي (1).

أما (من كان يظن) في الآية فهي تتجه اتجاهات زمنية مختلفة حسب السياق وحسب الشروح التي أعطيت لها. فقد تفيد زمنا عاما لا يراد منه ماض ولا حال ولا استقبال لأن من تفيد التعميم كما يقرر النحاة (2) ولأن معنى الآية : "من كان يظن من حاسديه وأعدائه أن الله يفعل خلال ذلك... فليستقص وسعه وليستفرغ مجهوده في ازالة ما يغيضه" (3) أي أن "كان" هنا تستغرق جميع الحساد الأعادي في كل الأزمنة. وقد تفيد الماضي ان كانت "من" هنا خاصة و "كان" تعني "قوما من المسلمين كانوا لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستظنون ما وعد الله رسوله من النصر" (4).

لو كان يفعل

في قوله تعالى : «أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير» (لقمان 21/31).

قبل أن ندرس الدلالة الزمنية للتركيب مجملا يحسن بنا أن نقف عند أجزائه، فالتركيب يتكون من أداة الاستفهام "أ" ويراد بها انكار الواقع في هذا المقام (5)، و "لو" وهي حرف شرط في المضي (6) تقتضي امتناع ما يليه

1 - انظر الفصل الذي خصصناه لزمان الفعل في الباب الأول.

2 - الصاحبى لابن فارس 173.

3 - الكشاف 8/3.

4 - الكشاف 8/3 وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة 46/2.

5 - أساليب الاستفهام في القرآن د/عبدالعليم السيد فودة 31.

6 - انظر الاتقان للسيوطي 147/1. قال المرادي : لو : حرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى. انظر الجني الداني في حروف المعاني ص274. وانظر المعنى 255-272.

واستلزامه لتاليه "عن ابن عباس قال : كل شيء في القرآن "لو" فانه لا يكون أبدا"(1)، و "كان" التي تفيد الماضي وضعا كما قلنا فاذا جئنا الى السياق الذي ورد فيه هذا التركيب نجد أنها وقعت بعد قوله تعالى : «واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» (لقمان21/31).

فالشطر الأول من الآية يتكون أيضا من شرط وجواب يفيد تكرار الحدث في الماضي على الأرجح (من قوله تعالى : اذا قيل... الى قالوا)، ثم جاء التركيب أو "لو كان" جوابا على ما جاء في الشطر الأول، ويبدو أن هذا التركيب فيما شرح المفسرون يتجه الي الماضي. قال أبو حيان : "أو لو كان" تقديره : أيتبعونهم في أحوالهم، وفي هذا الحال التي ينبغي أن لا يتبع فيها الاباء لأنها حال تلف وعذاب(2)، أي أن المؤدى الزمني للآية هو : أيتبعون آباءهم حتى وان كان شيطان فيما مضى من الزمان، يدعوهم الى عذاب السعير، وقد رأينا أن جميع الأجزاء التي يتشكل منها هذا التركيب تفيد الماضي فكأنه يفيد امتناع وقوع الحدث في الماضي، وكذلك قوله تعالى : «وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» (العنكبوت41/29) اذ يفيد التركيب الزمني الماضي، أن المعنى الزمني : لو علموا ذلك. قال أبو حيان : وقوله : لو كانوا يعلمون ليس مرتبطا بقوله : وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لأن كل أحد يعلم ذلك، فلا يقال فيه لو كانوا يعلمون، انما المعنى لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم(3) أي لو علموا أن دينهم أوهن الأديان لأقلعوا عنه.

ومن أمثلة هذا التركيب في القرآن قوله تعالى : «أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون» (يونس42/10)، وقوله تعالى : «وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» (العنكبوت64/29). وقوله عز وجل : «وللعذاب

1 - الاتقان 174/1.

2 - البحر 190/7.

3 - البحر 152.

الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون» (الزمر 26/39) وقوله تعالى : «قل أو لو كان
اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون» (43/39).

ما كان ليفعل

وهو تركيب يتكون من "كان" الدالة بالوضع على الماضي ولام المجرور التي
تفيد المستقبل بأحد الاعتبارين : أما لكونها تأتي قبل أن المضمر الدالة على
الاستقبال، وأما لأنها تقوم مقام أن، فقد "جعلت اللام مكان أن" مما يطلب
المستقبل "(1)". هذا هو حكم النحاة على هذا التركيب من الناحية الزمنية،
ولكننا عندما ندرس هذا التركيب في السياق القرآني نجد أنه لا يفيد
بالمستقبل وحده. من ذلك قوله تعالى : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما
كان الله معذبهم وهم يستغفرون» (الأنفال 33/8).

وقد جاءت الآية بعد قوله تعالى : «وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتينا بعذاب أليم» (الأنفال 32/8).
فالسباق الذي جاء فيه التركيب لا يدل على المستقبل، وإنما هو يشير إلى زمن
غير محدد أو بالأحرى هو يسري من الزمن الماضي وينطلق إلى زمن غير
استقبالي يتعلق بمحديده بظرف زمني آخر إذ معنى الآية : أن العذاب لم ينلهم
لأن الرسول كان فيهم ولن ينالهم ما دام بين ظهرانيهم قال الزمخشري وهو يشرح
الآية : "اللام لتأكيد النفي والدلالة على أن نعذبهم، وأنت بين أظهرهم غير
مستقيم في الحكمة لأن عبادة الله، وقضية حكمته لا يعذب قوما عذاب
استئصال... ما دام بين أظهرهم، وفيه اشعارهم بأنهم مرصودون بالعذاب إذا
هاجر عنهم" (2).

1 - معاني القرآن للفراء 262/1 وانظر كتاب للامات لأبي القاسم الزجاجي ص 71/68 وهامش
ص 71.

2 - الكشاف 155/2-156.

فالزمن الذي يدل عليه هذا التركيب هو زمن وجود الرسل بين كفار قريش، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية لنها : «وما لهم ألا يعذبهم الله» (الأنفال8/34) "كأنه قال : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وهو معذبهم اذا فارقتهم"(1).

أما قوله تعالى : «كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله» (يوسف12/76) فلا يمكن الا يكون للماضي لأن السياق الذي جاد فيه التركيب يدل على أن "ما كان ليأخذ" تشير الى حادثة معينة وقعت في زمن ماض، وما كان ينبغي فعلها لأن "ما كان يحكم به السارق أن يغرم مثل ما أخذ لا أن لا يلزم ويستعبد"(2)، ومن المواطن التي جاء فيها هذا التركيب دالا على الزمن العام قوله تعالى : «فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (التوبة9/70).

حيث ان الله منزه عن الظلم في سائر الأزمنة لذلك يمتنع أن يكون «ما كان الله ليظلمهم» دالا على الماضي فقط، أو على المستقبل فقط وانما هو يشير الى زمن أزلي، لا أول له فيما مضى ولا آخر له فيما يستقبل من الزمن، وقد فسر المفسرون الآية التي جاء فيها هذا التركيب بما يساير المعنى الزمني الذي حددناه قالوا : فما كان الله ليظلمهم : ما كان الله ليطلع عقوبته في غير مستحقها اذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه(3).

وقالوا : "فما صح منه أن يظلمهم : وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه(4). ومنه قوله تعالى : «وما كان ليظلم قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما

1 - المصدر نفسه.

2 - الكشاف 334/2 والبحر 332/5.

3 - البحر 70/5.

4 - الكشاف 202/2.

يقول بعض المفسرين "ان الآية" نزلت في ظرف معين ولسبب معين، وهو رفع لبس عن قوم ماتوا "وكان عملهم على الأمر الأول كاستقبال بيت المقدس، وشرب الخمر فسأل قوم الرسول بعد مجيء النسخ ونزول الفرائض عن ذلك فنزلت" (1) أي أن زمن "ما كان الله ليظل" ينحصر في زمن محدد هو الزمن الماضي الذي عاش فيه هؤلاء القوم هذا هو المعنى الزمني المباشر للتركيب فجعلنا نميل الى القول، أن زمن "ما كان الله ليضل" زمن عام يشمل الأزمنة التي سبقت البعثة النبوية والتي جاءت بعدها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأن سياق الآية يوحي بأنه حكم عام وهو مؤاخذة عباده المهتمدين الذين اقتصروا اثما لم يتقدم منه نهى عنه، فقد جاءت للفظ العموم وهو قوله تعالى : "وما كان الله ليضل قوما" بتنكير قوم دلالة على تعميم اللفظ ولو أراد التخصيص لقاء "القوم" : وقال الزمخشري وهو يشرح الآية : "يعني ما أمر الله باتقائه، واجتنابه كالاستغفار للمشركين، وغيره مما نهى عنه، وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام، ولا يسميهم ظلالة الا اذا أقدموا عليه بعد بيان خطره عليهم وعلمهم بأنه واجب الاجتناب، وأما قبل العلم والبيان، فلا سبيل عليهم، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر الى أن يقول : "وفي هذه الآية شديد ما ينبغي أن يغفل عنها وهي أن المهدي للإسلام، اذا أقدم على بعض محظورات الله دخل في حكم الاضلال(2)، أي أن الزمخشري في آخر هذا النص يستخلص أن الفعل يصلح لكل زمان.

ومنه قوله تعالى : «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»(هود/11/116) حيث جاء التركيب "وما كان ربك ليهلك القرى" دالا على الزمن العام لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم. قال الزمخشري :

1 - البحر 106/5.

2 - الكشاف 219/2.

"واستحال في الحكمة أن يهلك القرى ظالما لها(1) ويفسر أبو حيان الآية تفسيرا ينفق مع الزمن الذي يدل عليه التركيب يقول : "وما كان الله ليعذب أمة يظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الايمان"(2).

وقوله تعالى : «وما كان الله ليطلعهم على الغيب»(آل عمران3/179). حيث تفيد عموم الزمن" لأن سنة الله بأنه لا يطلع عوام الناس على غيبه... فأما معرفة ذلك على سبيل الاطلاع فهو من خواص الانبياء"(3) أي أن الله حكم با لا يطلع عامة الناس على غيبه في سائر الأزمان ولهذا استثنى أنبياءه من هذا الحكم فقال تعالى : «ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء»(آل عمران3/179)، والمعنى "ولكن الله يصطفي من رسله من يشاء فخصهم باعلامهم أن هذا مؤمن وهذا منافق(4).

كان يفعل والحالة على ماض المستقبل :

لم يكد يلتفت اللغويون والمفسرون الى هذه الدلالة الزمنية الخاصة "كان يفعل" اللهم الا ما أشار اليه السيوطي في الاتقان نقلا عن الرازي أن "كان" تفيد الاستقبال في نحو قوله تعالى: «يخافون يوما كان شره مستطيرا»(الانسان7/76)(5) ولقد تبين لي وأنا أرصد هذا التركيب في القرآن أنه يدل على زمن خاص لا هو للاستقبال ولا هو للماضي الخالص لأنه تركيب مسبوق غالبا بفعل ماض دال على الاستقبال و : "كان" الدالة على الماضي بالوضع "يفعل" الدالة على الاستمرار في الماضي، وتكون المحصلة النهائية لهذا التركيب هي مستقبل الماضي. ومن الامثلة القرآنية لذلك قوله

1 - المصدر نفسه 298/2.

2 - البحر 272/5.

3 - التفسير الكبير للفخر الرازي 111/9.

4 - المصدر نفسه.

5 - الاتقان 168/1.

تعالى : «وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون اذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعثون» (الرافعة46/56) اذ عدنا نضع هذه الاية في السياق الواسع الذي أدرجت فيه نجد أنها واقعة في زمن استقبالي دل عليه فعل ماض جاء في أول سورة الواقعة وهو قوله تعالى : «اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اذا رجت الارض رجًا ويست الجبال بسا»(الواقعة56,1,2,3,4,5) حيث جاءت الافعال الماضية (وقعت ورجت ويست) دالة على المستقبل البعيد هو يوم القيامة. قال الزمخشري وهو يشرح "وقعت الواقعة" :كقولك كانت الكائنة وحدثت الحادثة، والمراد يوم القيامة(1).

فالتركيب "كانوا يصرون" واقع في سياق المستقبل الذي لم يقع بعد وهو زمن يوم القيامة، وبما أن "كان" للماضي فهي تدل على ماضي هذا المستقبل وليس دالا على الماضي بالنسبة لحاضرنا لأن هذه الكلمة ستحق عليهم يوم القيامة، أي أن "كان" تدل على كل الأزمنة التي تكون قد مضت قبل يوم القيامة، فهو زمن يشمل جميع أصحاب الشمال الذين عاشوا قبلنا والذين سيأتون بعدنا الى يوم القيامة لقوله تعالى : «وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم انهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم»(الواقعة41/56-46).

ولعل الجدول التالي يبين الدلالة الزمنية الدقيقة لهذا التركيب :

المستقبل البعيد (يوم القيامة)	المستقبل القريب	
إذا وقعت الواقعة	المستقبل	
إذا رجعت الأرض	كـانـوا يـصـرون	ماضي
	يـقـولون	كـانـوا

ومنه قوله تعالى : « قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نحوض مع الحائضين وكنا نكذب بيوم الدين » (المدثر 43-47).

حين جاء التركيبان "كنا نحوض" و "كنا نكذب" دالين على ماضى المستقبل لأن السياق الذي وقع فيه يدل على زمن بعيد هو زمن الدار الآخرة والفعل "قالوا" الذي تصدر الآية الأولى قد صرف المعنى الزمني الى المستقبل على نحو ما هو طرد في الاسلوب القرآني، أما أنه مستقبل فلكون الايات التي سبقت هذا التركيب تضعه في زمن يوم القيامة وهو قوله تعالى : « كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر » (المدثر 39-42).

وبما أن التركيب يتشكل من "كنا" و "نحوض" فإن "كنا" تجعل الفعل المضارع "نحوض" ماضيا للمستقبل البعيد وهو يوم القيامة. قال الرازي وهو

يشرح الآية : "والمعنى : أنا بقينا على انكار يوم القيامة الى وقت الموت(1)،
ويصبح المعنى الزمني للآية : سيقولون يوم القيامة: "كنا نخوض مع الخائضين
على نحو ما هو مبين في الجدول التالي :

المستقبل البعيد (يوم القيامة)	المستقبل القريب (الحياة الدنيا)	الماضي
	المستقبل	ماضي
		كنا نخوض

ومن التراكيب الدالة على ماضي المستقبل قوله تعالى : «يضاعف لهم
العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون»(هود20/11) وقوله
تعالى : «شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا
يعلمون»(فصلت20/41).

- وقوله تعالى : «فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي
كانوا يعلمون»(فصلت27/41).

- وقوله : «أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا
يعلمون»(الاحقاف14/46).- وقوله سبحانه وتعالى : «فما أغنى عنهم
سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق

1 - التفسير الكبير للامام الرازي 211/30.

بهم ما كانوا به يستهزؤون» (الاحقاف 26/46).

يكون يفعل (كان وخبرها فعلا مزارعان)

أما "يكون يفعل" فلم ترد منها الا صيغ قليلة لا تتجاوز سبع مرات وهذا حسب الاحصاء الذي قمنا به لهذا التركيب وقد جاءت مسبوقة بأحد الادوات التالية :

"لم" في نحو قوله تعالى : «لم نك نطعم المسكين» (المدثر 44/7).

أداة الشرط "ان" في نحو قوله تعالى : «إن تكونوا تألمون فإنهم يأسلمون كما تألمون» (النساء 104/4) مع لم الجازمة ولام الجحود في قوله تعالى : «لم يكن الله ليفقر لهم ولا ليهدبهم سبيلا» (النساء 137/4). ولقد وجدنا أن الدلالات الزمنية لهذه التراكيب مع الادوات السابقة لا تختلف عما تدل عليه "كان" مع هذه الادوات، فقد رأينا مثلا أن "كان" مع أدوات الشرط ومع لام الجحود تفيد غالبا عموم الزمن وهذا ما دلت عليه التراكيب (أن يكونوا، لم يكونوا...) أما يكون مع "لم"، و "لم يكن" فميزتها عن كان أنها تأتي لنفي الحدث في الماضي.

ولإجمال ما درسناه في هذا الفصل قمنا برصد التراكيب "كان يفعل" و "كان فعل" ، "يكون يفعل" وذلك للوقوف على نسبة ورودها وتنوع معانيها الزمنية وذلك بفضل الجداول التالية :

المجدول الأول يحصي معدلات تكرار "كان فعل" و "كان يفعل" و "يكون يفعل" مجردة ومسبوقة باحدى الأدوات وبجميع مشتقاتها (كانوا، كن، كنتم، كنت... الخ).

كان فعل	ان كان فعل	كان يفعل	ان كان يفعل	من كان يفعل	لو كان يفعل	ما كان يفعل	لم تكن فعل	لم يكن يفعل	ان تكونوا تفعلون
04	12	167	22	18	15	18	02	04	01